في الطريق الى منطقة ساخنة

شكوك متبادلة .. ورنّة الموبايل تثير الارتياب

تطلعت مليا في وجوه ركاب السيارة التي اقلتني ، فأنتابني بعض القلق ، اذ لم يكن فيها من الرجال سواي ، وشاب في مقتبل العمر ،وعجوز في السبعين ، اما البقية فكن من النساء ، وقد اتشحن بالسواد من اعلى الرأس الى اخمص القدمين ، وجوه بلا مكياج ، وكأنهن ذاهبات الى مأتم ، اشعل الرجل العجوز سيجارة غير مبال براحة الركاب ، التفت نحوه لاسأله فقال "لم يعد في العمر بقية اخاف عليها من السيطرات الوهمية وعصابات التسليب وحوادث الاشتباكات المسلحة" هكذا اجابني بكل برود ، بينما حسبت للمنطقة الساخنة المتجهين اليها الف حساب ، وهذا ما يفعله جميع العراقيين هذه الايام اذا ما ارادوا الانتقال من محافظة الى اخرى ، ربما اكون على خطأ عندما قررت السفر الى هذه المدينة غير آبه لنصائح زملائي المحذرة بعدم المجازفة ، لاشك ان تحذيراتهم في محلها ، فالمدينة التي كانت وديعة بنظر الجميع الى وقت قريب ، لم يبق منها سوى مشاهد الخطف والذبح على الهوية واغتيال الابرياء ، بينما ذهبت الطيبة والكرم وصفاء السريرة والتالف بين الطوائف التي عرف بها اهلها ادراج الرياح.

كتابة : جليل وادي

ماذا حدث لهذه المدينة بالتحديد؟ ذلك ما دفعني للمغامرة والسفر اليها لاتيقن بنفسي مما حدث. بنظرة جانبية خاطفة القيتها على السائق الشاب وهو يقلب اشياء اسفل مقعده، كان وجهه متجهما، ما اثار ريبتي، فقد يكون من اولئك الذين يتآمرون على الركاب ليغدرهم في الطريق او يسلمهم الى جهة مسلحة، لكن ما بدد شكوكي واضفى بعض الاطمئنان على نفسي، العرف المتبع في بعض الكراجات الذي يعرض السواق الذين يصدف لركابهم حوادث عنف، لمساءلة شديدة قد يكون من بينها القتل والخطف ايضا، وهذا العرف تقوم به جهات مسلحة بحسب هوية الركاب المتضررين، وقد يكون ذلك من بين الاسباب التي قللت من حوادث التسليب والخطف في الطرق الخارجية، لكنها بالمقابل حملت الكثير من السواق الابرياء على ترك مهنتهم تحاشيا لهذه المآزق.

انطلقت السيارة مع دعوات النسوة بالستر والسلامة وقراءة سور قرآنية قصيرة، الخوف والقلق خيم على الوجوه، الجميع يدرك ان الطريق ينطوي على مخاطر جسيمة، بخاصة ان الاحياء والقرى المحاذية للشارع الرئيس الذي تسلكه السيارة تقع على جانبيه مناطق سكنية بهويات طائفية مختلفة، فما ان نقبل على منطقة حتى تنشرح وجوه بينما تصفر اخرى، واذا مارن جهاز هاتفك فكل الوجوه تدار نحوك لتسمع فحوى ما تقول، ومعرفة فيما اذا كانت اجابتك عادية ام انها ايعاز لجهة مسلحة كي تتهيأ للانقضاض على السيارة. غالبا ما يخشى الناس في الانتقال من منطقة الى اخرى ما يسمون بـ (العلاسة) اكثر مما يخشون انفجار العبوات الناسفة والسيارات المفخخة،ذلك انهم في الاولى يلقون قدرهم صدفة، بينما في الثانية يلقونه بالغدر، ومصطلح (العلاسة) من بين عشرات المصطلحات المجازية التي انتجها الواقع الشعبي ليرمز بها الى حالات بعينها.

الشاب الذي جلس بجانبي ارتعد خوفا عندما اقتربت سيارتنا من احدى المناطق، فيما همهمت والدته بالفاظ لم اتمكن من سماعها، لكن سرعان ما سلمها جميع الوثائق الثبوتية التي كانت بحوزته، واكتفى بهوية مدرسية، وهكذا بقايا الام وابنها يتبادلان الوثائق بحسب المناطق التي تمر بها السيارة.

لاادري تماما حجم الاحباط واليأس الذي غمرني وانا ارقب هذا المشهد اللا انساني، وفي ذهني تساؤلات شتى؟.

"الطريق آمن" هذا فحوى الاشارات اليدوية والضوئية التي استلمها سائقنا من سواق السيارات المعاكسة لنا بالاتجاه، ما اضفى عليه بعض الاسترخاء تجسد في زيادة سرعة سيارته، وتبادل اطراف الحديث مع الجالسين الى جانبه.

وبكلمات هامسة قالت المرأة التي تجلس خلفي لصاحبتها "عليك ان لا تتأخري غدا، فالكراج يتوقف عن العمل عند منتصف النهار " بالفعل هذا هو حال جميع الكراجات في المناطق الساخنة، اذ يكتفي السواق بالذهاب والاياب بين المحافظات القريبة او باحداهما في المحافظات البعيدة، ويندر ان يبيت السواق في الكراجات عندما يضايقهم الوقت كما كان الحال سابقا، لذلك ينظمون وقت عملهم بالشكل الذي يضمن لهم العودة الى مناطقهم، وانعكس ذلك على المسافرين الذين تزدحم بهم الكراجات صباحا، بينما تكاد تخلو منهم بعد الظهر.

الطرق الخالية تبدو للمسافرين طويلة، وطويلة جدا عندما يعتريهم الخوف والقلق من شيء ما، وطريقنا يكاد يكون شبه خال، وقد عملت فيه العبوات الناسفة حفرا عديدة،بعضها دمر نصف عرض الشارع، وهذا يقتضي من السائق الانتباه الشديد لئلا يقع في احداها، وفي بعض الاماكن يحتاج السائق ان يقود مركبته بطريقة ملتوية (زكزاك) بعد تخفيف السرعة الى اقصاها، وفي كل مرة يعبر عن تذمره لهذه الحالة، ويشتم الدوائر البلدية لتقاعسها عن ردم الحفر التي تشكل خطرا كبيرا على المسافرين.

في احيان معينة يخيل اليك وانت تسير في هذه الطرق وكأنك ذاهب الى جبهة قتال، بخاصة ان بعض الوحدات العسكرية المنتشرة بمسافات متباعدة على طول الشارع قد حفرت مواضعا لالياتها واقامت سواتر لحماية الجنود، امثال هذه المشاهد اتذكرها جيدا عندما كنت جنديا اؤدي الخدمة الالزامية في الحرب مع ايران ومن ثم في الكويت، لذلك لم اتمكن من لجم جماح تداعياتي التي ذهبت بي الى مدينة الفاو، وكيف ان الهواء المحمل بالرطوبة او ما يسمى بـ (الشرجي) جعل جسمي دبقا، فيما عانى بعض الجنود المصابين بمرض الربو من حالات اختناق كادت تودي بحياتهم لولا الجهد الذي بذله مسؤول الوحدة الطبية الذي ضغط على آمر وحدتنا في سبيل نقلهم الى وحدات خلفية في منطقة الدريهمية الواقعة في قضاء الزبير.

عندما دخلت الى الفاو اول مرة، شعرت وانا الذي قضيت جل حياتي في بغداد اني اسبح في فضاء عمره خمسة آلاف عام، وكأني بآثار اقدام السومريين مازالت باقية، ارض اكل وجهها بياض الملح ومزقها العطش، اما وجوه الجنود فكانت معفرة بألم الاشتياق الى الاحبة، وامواج الموت تتلاطم في عيونهم، وقد حفرت عذابات السنين اخاديد على جانبيها.

على صوت فرامل صارخة بقوة صحوت مما رسخ في ذاكرة تعود الى اكثر من عشرين عاما لم يكن خلالها العراقي قد تنفس الصعداء، او عاش بلا موت اواحزان مثلما يعيش خلق الله في البلاد الواسعة، فالموت مازال ينتشر في الشوارع والازقة، فمتى تنتهي المأساة الممتدة منذ الخليقة كما يشير الى ذلك تاريخنا؟

اوقف سائقنا السيارة بطريقة مفاجئة على الحافة الترابية للشارع بسبب قدوم رتل عسكري امريكي يسير في الشارع الذي نسلكه وبطريقة معاكسة لاتجاهنا، برغم ان الشارع الاخر الموازي لاشيء فيه يضطر الرتل الى سلوك شارعنا.

" يوم اسود " قالت احدى النساء الجالسات في المقعد الخلفي من دون ان تكمل العبارة المعروفة لدى السامعين، واضافت بأنها لولا البطاقة التموينية التي يجب نقلها لما جاءت الى هنا بعد الذي حصل لها " وعندما استفسرت المرأة الجالسة الى جانبها عن الذي حصل، اغرورقت عيناها بالدموع، وتهدج صوتها، فالذي حصل ان ابنها البريء قتل في سوق يعج بالمتبضعين وامام مرأى الناس الذين استبد بهم الذعر، وعائلتها هجرت، وعندما عاد الاب الى البيت لنقل الاثاث قتلوه مع سائق الشاحنة امام بيته، وظل مرميا لثلاثة ايام، خلالها لم يجرؤ أحد على نقله الى الطب العدلي، ولما تفسخت جثته واخذت رائحته تملأ المكان حمله المسلحون الى مكان غير معلوم، كما ان بيتها نهب بعد ذلك ولم يبق منه شيء، وقد عادت عائلتها الى نقطة الصفر وكأنها لم تعمل وتكد طوال عمرها،وهم الان يسكنون في خيمة بالعراء، يلفح بهم سموم الصيف وزمهرير الشتاء،وفوق هذا كله صار لهم احد عشر شهرا بدون حصة تموينية برغم المراجعات المتواصلة لدائرة المهجرين ووزارة التجارة، "الموت افضل من الحياة" بهذه العبارة ختمت المرأة حديثها فيما مسحت دموعها بطرف شالها.

بعد لحظة صمت تشبه لحظة الحداد قالت المرأة الثانية بحسرة " لقد قتل الذين لا يخافون الله ابن جارنا احمد من دون ذنب سوى انه من الطائفة الفلانية، كان شابا يفوح غيرة على سكان الحي، ولم يمض على زواجه ثلاثة شهور، كان مقتله انذارا لنا ولعدد من العوائل التي هجرت الحي حتى قبل ان ينتهي مجلس العزاء " لقد تأسف الجيران على رحيلنا، ولولاهم لما تمكنا من العيش، اذ يقومون باستلام الحصة وراتب زوجي سرا، وفي اخر كل شهر اتفق معهم على مكان معين لاستلم المقسوم، وانا اليوم في طريقي اليهم "

زمن مر، ومرارته اشد من العلقم، هكذا يعيش العراقيون الذين ابتلوا بدفع اثمان باهظة في صراعات لاناقة لهم فيها ولا جمل، وفي كل محنة يتساءلون ما الاثم الذي ارتكبوه، هل حقا هي لعنة كما يقول البعض عندما ييأسوا من التوصل الى تفسير منطقي للاحداث؟ لاشيء منطقي في الذي يحدث، اننا نفرط بالحياة ونحتفي بالموت، الموت الذي يحاصرنا من كل جانب، وخطاباته منتشرة في كل الازقة والاحياء، وطريقنا ممتلئ بخطاباته التي علقت على الجدران الخاوية لبعض القرى التي نمر بها، لكن اكثر تلك الخطابات حرقة في القلب تلك التي تشير الى ان الموت جاء اثر حادث غادر، هذا النوع من خطابات الموت هي الاكثر انتشارا في الشارع العراقي منذ سنة ونصف السنة، لكن الموت في بلادنا كالمطر، يسقط بشكل متساو على جميع العراقيين، لا يفرق بين هذه الطائفة او تلك، الموت اكثر رفعة من السياسيين والمسلحين، فقد اعلن مبكرا شعاره البعيد عن الطائفية، فمتى ندرك ان خسائر جميع الاطراف التي تمتهن الموت متساوية، وان لا رابح في معركة الطائفية المقيتة.

من بين الامور المقلقة لسالكي الطرق الى المناطق الساخنة، ان تعطل سيارتهم في الطريق، والقلق يكون على اشده اذا كانت المنطقة التي تتعطل فيها السيارة تختلف هويتها عن هوية الركاب، فضلا عن ان السيارات المارة الاخرى لا تتوقف للذين تعطلت سيارتهم خشية ان يكون الواقفون عناصر عصابة او مجموعة مسلحة، لذلك يكتفي السواق بما موجود من ركاب في سياراتهم من دون التوقف لاحد حتى وان كانت السيارة فارغة، وهذه من جملة المشكلات التي يعاني منها ايضا سكان المناطق الواقعة على الطرق الخارجية.

سيارات وشاحنات من انواع مختلفة تصادفك في الطريق بعضها محترق والاخر مقلوب، وكلها بفعل اعمال مسلحة، هذا ما تشير اليه الاضرار التي اصابتها، وقد لفتت نظري احدى السيارات المعطوبة وقد تكور شكلها، يبدو انها اصطدمت بكتلة قوية، ربما يكون جدارا كونكريتيا او دبابة امريكية، فالاضرار البادية عليها كانت بالغة جدا، ومن المؤكد ان ركابها فارقوا الحياة في الحال، كل شيء هنا يشعرك بان الطريق يؤدي الى ساحة معركة، ولاادري تحديدا كيف هو حال مركز المدينة؟

هنا وفي هذا المكان تحديدا يجب على جميع الركاب ان (يتلفنوا) لذويهم بغية اخبارهم بالوصول الى هذه المنطقة، لانهم بعدها لن يكون بمقدورهم الاتصال، ذلك ان اغلب ابراج الاتصالات قد فجرت، والمتبقي منها لا يوفر تغطية مناسبة، فكثيرا ما تكون الاشارة الهاتفية متذبذبة في مناطق ومعدومة في مناطق اخرى، كما انهم يريدون بالاتصال الاخير هذا الاخبار بأنهم وصلوا الى المنطقة الاكثر خطورة، ذلك انها من ضمن مناطق نفوذ الجماعات المسلحة بحسب ما يقول العارفون بها، وعليه فالمكروه الذي يحصل لهم محصور جغرافيا بين مركز المدينة وهذه المنطقة، وتحدد هذه الجغرافية طبيعة الطرق التي يسلكها الاهل في البحث عن ابنائهم المغدورين او المخطوفين، فضلا عن ان معرفة ذلك يجنب الباحثين المخاطر المحتملة التي يمكن ان يتعرضوا لها. ولطالما تعذر على الآباء البحث عن ابناء فقدوا في هذه المنطقة اوتلك بسبب ان هذه المناطق تعد مغلقة طائفيا، وينطبق على داخلها قول مثلنا الشعبي " درب الصد ما رد "، كما ان بعض العوائل وعلى مضض اهملت مسألة البحث عن ابنائها، واكتفت بالبحث عنهم في دوائر الطب العدلي، والمؤلم ان ذلك البحث يتم من خلال معارف واصدقاء من اهالي المناطق الساخنة، لانها ادركت ان القيام بذلك بانفسهم يعد مغامرة قد تكلفهم ضحايا جدداً. اتذكر ان سالكي هذا الطريق فيما مضى من سنوات الاستقرار، سرعان ما يخلد اغلبهم الى النوم فور انطلاق السيارة، ولكني لم الحظ في سفرتي هذه احدا من الركاب وقد اغمض عينيه، بل حملقت جميع العيون وبترقب شديد في جانبي الطريق، الانتباه على اشده، وكثيرا ما اجبر الركاب السائق على تخفيف السرعة ريثما يتأكدون من أي شيء بدا لهم غريبا، كتوقف سيارتين متقاربتين، او عبور مجموعة من الشباب الشارع، حكايات العنف تسيدت الاحاديث الجانبية بين الركاب الى درجة اني لم اسمع غيرها، واتضح من سياقها ان اغلب النسوة من العوائل المهجرة، وان البضائع التي وضعنها في الفراغات بين المقاعد كانت حصصا تموينية تمكن من الحصول عليها من المناطق التي هجرن منها، كم هو محزن ان تنتقل من محافظة الى اخرى ليس للسياحة او لامر مهم، بل لتحصل على بضع عبوات من الزيت او كمية محدودة من السكر.

عندما وصلنا الى مشارف المدينة، وقفت سيارتنا وراء طابور طويل من السيارات المتوقفة عند سيطرة للجيش العراقي، ولما استفسرنا عن الموقف قيل لنا ان القوات الامريكية باشرت عملية امنية في احدى المناطق، ومن المحتمل ان تستمر حتى المساء، وقد نصحنا احد الجنود العراقيين بالعودة الى العاصمة قبل ان يحل الظلام، تعالى لغط النسوة،فيما لعن السائق حظه العاثر مراراً.

اضطر الى تغيير تكتيكاته الجوية

الجيش الامريكي: صواريخ ايرانية متطورة تستهدف طائراتنا في العراق

بغداد/ وكالات

قال الجيش الامريكي في العراق انه اضطر مؤخرا الى تغيير تكتيكاته الجوية بعد ان تم استهداف طائراته مؤخرا بصواريخ ارض جو متطورة مصدرها ايران.

ونقل تقرير للجيش الامريكي امس عن العقيد في سلاح الجو الامريكي دانيال شانهان قوله "ان طاقم طياري الطائرات العمودية التابع لسلاح آليات الجو الامريكي قد اضطر الى تغيير خططه من الناحية التكتيكية لكي يتكيف في تصديه لمنظومة صواريخ ارض - جو التي تتصف بقدر زائد من التطور التكنولوجي".

واوضح شانهان "يعتقد المسؤولون ان هذه الصواريخ ترد الى العراق من دولة إيران" واضاف قائلا: "ان القوة الجوية الامريكية ادركت منذ وصولها الى مواقعها ان ثمة ارتقاء في طبيعة الهجمات وتطورا في انواع الاسلحة المستخدمة فيها".

واضاف "واجهت القوة على مدى الاشهر العديدة الاخيرة تعاظما في حالة الخطر الناجم عن منظومات الاسلحة التي لم تشهدها من قبل خلال الجزء الاخير من هذا العام" مشيرا الى ان "بعضا من هذه الاسلحة كان قد ظهر في اول الامر في اماكن معينة مثل دولة ايران".

وكشف شانهان عن ان وجود هذه الصواريخ كان سببا وراء ادخال تغييرات كبيرة على الخطط التكتيكية وعلى النواحي الفنية لها والاجراءات الخاصة بهذه الخطط.

وشدد قائلا " ينبغي لنا التصدي لهذا الخطر لاننا نمتلك الان اعظم ما وجد في العالم من منظومات الاسلحة وتعززنا في ذلك علوم التكنولوجيا".

وكشف عن ان المزيد من اجهزة الاستشعار التي من شأنها الحد من وجود الاشعة فوق الحمراء قد تم اضافتها وادخلت تغييرات على التكتيكات الخاصة بعمليات الطيران.

يذكر ان طاقم الطيارين الذين يعملون تحت امرة العقيد دانيال شانهان قد حققوا نحو ٨٠ الف ساعة طيران خلال ال١٣ شهرا الماضية حيث تمضي كل طائرة عمودية حوالي عشر ساعات من الطيران المتواصل مقابل كل ساعة واحدة تقضيها على الارض ويتعرض طياروها للنيران المعادية بواقع ٢٠٠ مرة في الشهر الواحد.

وقال شانهان ان هذه الهجمات تشن بواسطة اسلحة تتراوح اصنافها ما بين اسلحة خفيفة الى صواريخ محمولة على الكتف هي من طراز صواريخ ارض - جو ويعتمد اطلاقها على استخدام الاشعة فوق الحمراء لتوجيهها.